٤١ القاسم الشاطبى
ابن شاطبة الأندلسية المتوفى بالإسكندرية

إذا أردنا أن نحصى أسماء الصالحين الذين تركوا بلادهم، واختاروا مصر ليتخذوا منها مقراً لحياتهم، ومثوى لرفاتهم، فلن ننتهى، فالسلسلة طويلة، وأعداد هؤلاء الصالحين الذين شرُفَت مصر باستقبالهم أعداد ضخمة، ومصر دائماً تفتح ذراعيها لكل من قصدها، خاصة إذا كان من أولياء الله الصالحين، فلن يجد غيرها مكاناً أكثر أمناً وأماناً، ولن يجد أفضل من ناسها ترحيباً وتقديراً.

والشيخ القاسم الشاطبى أحد هؤلاء الصالحين الذين تركوا مواطنهم الأصلية وجاءوا إلى مصر، فاختاروها مكاناً لنشاطهم فى الحياة، ومستقراً ومقاماً لرفاتهم بعد الموت، حيث وفَدَ من بلاد الأندلس نازحاً إلى مصر. وتكون الإسكندرية هى المدينة التى تستقبله، فلا يتركها ويستقر فيها حتى الوفاة. ولم تكن الإسكندرية بأقل وفاءً لمن زارها وفضلها عن مدن الدنيا، فقد خصصت لهذا الشيخ الصالح واحداً من أحيائها الكبيرة، وهو حى الشاطبى لينسب إليه، يتوسطه مسجد باسمه. يضم ضريح لرفاته الطاهر.

ولقد اجتمعت فى اسم الشيخ الشاطبى بعض سمات الثقافة العربية، وقدرتها على الأخذ والعطاء، التأثير والتأثر. فإذا كان اسمه هو «القاسم بن فِيْرُّه بن خلف الرعينى الشاطبى. فإن ذلك يعى دلالة اللغة العربية على الاستيعاب من ناحية، وقدرتها على الامتداد بين الأمم والشعوب من ناحية أخرى. فكلمة «فِيْرُّه» ـ بكسر الفاء وسكون الياء، وتشديد الراء مع ضمها ـ معناها الجديد، والرعينى نسبة إلى رعين باليمن، والشاطبى نسبة إلى مدينة شاطبة فى بلاد الأندلس، والقاسم على اسم ابن النبى صلى الله عليه وسلم فأنظر كم من الدلالات والمعانى يحملها هذا الاسم فى لغتنا العربية وهو أمر قد لا يتوافر كثيراً فى أى لغة من اللغات الأخرى.

ولد الشاطبى كغيره من آلاف المواليد فى سنة ٥٣٨ بمدينة شاطبة بالأندلس. صحيحا سليما. إلا أنه لسبب أو لآخر فقد بصره وهو لم يزل طفلا صغير. فلما شب لم يكن أمامه غير تعلم علوم الدين. بادئاً بحفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف. متقنا للقراءات فى فترة وجيزة، أذهلت كل من عرفه من معلميه وأقاربه الذين نصحوه بالسفر إلى مدينة بلنسية القريبة من شاطبة. وهى مدينة تموج بالأحداث الوطنية، وبالتيارات الفكرية، وتمتلئ بالعلماء والفقهاء. خاصة وأن الثقافة العربية لم تكن قد غربت بعد عن الأندلس بل كانت لا تزال عزيزة قوية.

فى هذه المدينة الأندلسية «بلنسية» ذات التاريخ العربى المجيد درس الشاطبى الحديث على أصوله، والنحو والأدب والفقه والتفسير فى أمهات كتبه. يعاونه فى سرعة التحصيل واتساعة استعدادا خاصا لتقبل العلوم، وذكاء خارقا لإلتقاط ما يفيده، وملاحظة حادة لتمييز الأصيل من الدخيل. وغيرها من سمات هيئته للتميز والنبوغ والتفرد بين طلاب العلم.. وما هى إلا فترة غير طويلة إلا وأصبح الشاطبى إماما فى النحو واللغة، وراوية للشعر، إلى جانب كونه فقيها محدثا له وجهات نظر يحترمها غيره من العلماء.

وطبيعى وقد أصبح هذا الشيخ الصالح على هذا النحو من العلم والمعرفة والتفقه. أن يقوم بمسئولية الخطابة فى مساجد مدينة بلنسية. ويتجمع حوله الناس لما لمسوه منه من محجة وقوة بيان، ويقتنع هو بما يؤدى من رسالة. لكنه سرعان ما فر من هذه المسئولية محتجا على ما كان الأمراء يلزمون به الخطباء من ذكرهم على المنابر بأوصاف لم يرها الشاطبى سائغه ولا مشروعة. وإنما هى تدخل فى باب النفاق من المادح، والرهبة والخوف من الممدوح. ولهذه الأسباب وغيرها رحل الشاطبى عن بلاده وهو فى الرابعة والثلاثين قاصدا مصر . مع أنه ظاهريا أعلن أنه يغادرها طلبا للحج.

وفى ذلك يقول السبكى: «ولست أدرى. إن كان الشاطبى قد أتم فريضة الحج أو لم يتمها.. لكنه على أية حال القى عصا التسيار فى مصر مستوفيا فيها حظه من الثقافة التى تتصل بالقرآن».

وبديهى أن تكون الإسكندرية هى أول المدن الثقافية المصرية التى يدخلها بعد رحلته من الشمال الغربى. وكانت وقتئذ هذه المدينة زاخرة بالعلماء والفقهاء

وطلاب العلم. وكان أكبر علمائها فى ذلك الوقت الإمام الحافظ صدر الدين السلفى الأصفهانى. فطلب اللقاء به أملا فى أن يستوفى حظه من علم الحديث وتفسيره. وما هى إلا فترة قصيرة حتى ذاع اسمه، وعلا صيته، بين تلاميذ الإمام السلفى ومدرسته. إلى درجة أنه كان يعيد الدرس على زملائه فى غياب أستاذه. ولم تكد تمر بضع سنوات حتى أصبح الشاطبى شيخا لمدرسة أسسها له القاضى الفاضل تحت إسم المدرسة الفاضلية. تقديرا لعلم الشاطبى من ناحية وتخليدا لإسم مؤسسها من ناحية أخرى. ولكنها على أى حال كانت من الجوانب الإيجابية فى ذلك الزمن.

والجدير بالذكر أن كل مَنْ تناول شخصية الإمام الشاطبى بالترجمة أطنبوا فى وصف مواهبه. فقد قالوا عنه بأنه أعجوبة أهل زمانه فى الذكاء وسرعة البديهة. فلا يرتاب أحد أنه مبصر لذكائه. فلا يبدو منه ما يدل على العمى. وقالوا أيضا عن زهده وورعه بأنه كان عابدا مخلصا فيما يقول ويعمل، منقطعا للعلم والعمل، يتجنب فضول الكلام، غير ناطق إلا بما تدل إليه الضرورة، وقالوا فى طهره ونظافته وحسن مظهره بأنه كان لا يجلس للقراءة إلا على طهارة، وفى هيئته جلال، وفى أحاديثه خشوع واستكانة، وكان يعتل العلة الشديدة فلا يشتكى ولايتأوه.

وأما عن خلقه وعزة نفسه، وترفعه عن الصغائر فيحدثنا ابن شامة قائلا: «حكى أن الأمير عز الدين بعث إلى الشاطبى يدعوه للحضور عنده. فغضب من هذه المعاملة وشعر بأنها إهانة. إذ كيف يعامل الأمراء.. علماء الدين بهذا الاستهتار فبعث إليه بشعر مع تلميذه عثمان بن عمر قال فيها:

قل للأمير نصيحه ... لا تركنن إلى فقيه
إن الفقيه إذا أتى ... أبوابكم لا خير فيه

وقد تتلمذ على يدى الشاطبى تلاميذ كثيرين يتقدمهم الشحادى وابن الحاجب وابن شامه. وقد ظل خادما للقرآن ناشرا للعلم حتى توفى سنة ٥٩٤ هـ ودفن بالإسكندرية فى الحى المعروف باسمه حتى الآن[1].

* * *

(١) الدكتورة سعاد ماهر ـ مساجد مصر وأولياؤها الصالحين.